على هامش درس

الإعراب عن قواعد الإعراب

أحمد نصيف

الفهرست

الفصل الأول: ابن هشام الأنصاريّ، وكتبه في العربيّة ٤

الفصل الثاني: المنهج التَّدريسي لعلم النَّحو ١٤

الفصل الثالث: دراسة علم النَّحو........................ ٢٤

الفصل الرابع: جدليَّة الكتب القديمة والحديثة ٣٢

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتعالي الشَّـان، الرَّفيعِ المكان، والصَّـلاةُ والسَّـلام على المبعوث هدايةً للإنس والجانّ، سيدنا المصطفى محمَّدِ بن عبد الله، وعلى أخيه ونفسِه المرتضى النَّاطقِ بفضله وإمامته كلُّ لسان، مولانا عليٍّ أمير المؤمنين، وعلى أهل بيتهما أنوار كلِّ زمان ومكان، صلاةً كثيرةً دائمَةً باقيةً ما بقي الحدثان، ولعنةُ الله وملائكته ورسله على مَن دفعهم عن مقامهم وأزالهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها قبل تكوين الأكوان، وبعدُ:

فإنِّي لمَّا شرعتُ بتدريس كتاب «الإعراب عن قواعد الإعراب» تصنيف العلَّامة النَّحوي عبد الله بن هشام الأنصاريّ، بدتْ لي بضعُ خواطر جديرةٌ بالتَّحبير، وحقيقة بالتَّحرير، ترتبط بالمنهج الدِّراسيّ النَّحوي الذي يعكف على دراسته أبناء الحوزة العلميَّة المباركة؛ لكون آلة النَّحو وما احتفَّ بها من فنون اللُّغة العربيَّة الشَّريفة، مقدِّمةً أساسيَّةً لفهم كتاب الله تعالى وما حُكي من سُنَّة النَّبيِّ والأئمَّة عليهم السلام، وشرفُ المقدِّمة بشرف ذي المقدِّمة.

وإنَّا نزعُم بأنَّ نظيرَ هذه المساهمة ليست ترفًا وتسويدًا لمُبتَذَل الصُّحف، بل قد تسدُّ ثغرةً أو تصحِّحُ اشتباهًا كلَّف صاحبَه كثيرًا، بحيث جاوزت التَّبِعات ذاته الشَّخصيَّة لذوات غيره مِمَّن هم عيالٌ في ربقته.

وقد نظمنا هذه الرِّسالة في أربعة فصول:

الأول: ابن هشام الأنصاري، وكتبه في العربيَّة.

الثاني: المنهج التَّدريسي لعلم النَّحو.

الثالث: دراسة علم النَّحو.

الرابع: جدليَّة الكتب القديمة والحديثة.

ربِّ وفِّق وأعِن بمحمَّدٍ وآله.

الفصل الأول: ابن هشام الأنصاريّ، وكتبه في العربيّة

هو[1] أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاريّ المصريّ، ولد في القاهرة سنة ٧٠٨هـ، وتُوُفِّيَ فيها سنة ٧٦١هـ، عن ٥٣ عامًا.

لزم الشِّهاب عبد اللطيف بن المرحل، وتلا على ابن السراج، وسمع على أبي حيَّان ديوانَ زهير بن أبي سُلمى المزني، ولم يلازمه، ولا قرأ عليه غيره، وحضر دروس التاج التبريزي، وقرأ على التاج الفاكهانيّ شرحَ الإشارة له إلَّا الورقة الأخيرة، وحدَّثَ عن ابن جماعة بالشَّاطبيَّة، وتفقَّه على مذهب الشافعي، ثم تحنبل فحفظ مختصر الخرقي قبيل وفاته.

وتخرَّج به جماعةٌ من أهل مصر وغيرهم، وتصدَّرَ لنفع الطالبين، وانفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدَّقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق

---

١ استفدت من هذه الترجمة المختصرة من صدر كتابه (شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب)، بتحقيق وتعليق: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

البارع، والاطلاع المفرد، والاقتدار على التصــرُّف في الكلام، وكانت له ملكة يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يُرِيد مطنبًا وموجِزًا.

ولابن هشـــام مصــنَّفات كثيرة كلها نافعٌ مفيدٌ تَلوح منه أمارات التحقيق وطول الباع، منها:

- قطر الندى وشرحه.
- شذور الذهب وشرحه.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك.
- الإعراب عن قواعد الإعراب.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.
- شرح قصيدة «بانت سعاد».

وغير ذلك مما يُعلم بالرُّجوع إلى ترجمته المفصَّلة في مظانّها.

أمَا وقد ذكرتُ هذه النُّبذة عنه وعن بعض تراثه، فإنَّني أتحدَّث عن أصل ما أردتُه، فأقول:

إنَّ دراســة علم العربيَّة من وكيد المقدِّمات الضَّــروريَّة لفهم كتاب الله تعالى وفقه أحاديث النَّبيِّ والأئمَّة عليهم السلام، وهذا مما لا كلام فيه، ومن أهمِّ

علوم اللغة العربية علمُ النَّحو، أو قل: علم الإعراب. وهو العلمُ الذي يُعنى بمعرفة مواطن الكلم أثر تغيُّر علاماتها بسبب دخول العوامل المختلفة، وله فوائد أُخَر كذلك.

ولمَّا كانت العناية به بالغةً أهميَّة واضحةً وجليَّة، اشتغل به علماء الإسلام منذ القديم بفنون الاشتغال، درسًا وتدريسًا وتأليفًا وتحقيقًا وشرحًا واستدراكا، وكان لبعض العلماء مساهماتهم القويَّة والواضحة في تهذيبه وتنقيحه، بل تحقيقه، ومن أولئك الشيخ السالف الذكر، فابن هشام صنَّف في علم النَّحو كثيرًا، واستفاد مَن جاء بعده مِن تراثه غايةَ الفائدة، ويكفينا في المقام أن نعرف بأنَّ مصنَّفاته تربَّعت كرسيّ الدرس العلمي منذ القدم، من دروس المقدمات حتى البحوث العالية.

ففي خصوص الحوزة العلميَّة الإماميَّة – صانها الله – يدرس طلبة العلم كتابَين من كتبه بنحوٍ منهجيّ، وقد يَدرس جملةٌ منهم بعض كتبه الأخرى غير هذين الكتابين، ولعلَّ البعض هذا ليس بقليل.

ذِكرُ كتب النَّحو في الحوزة العلميَّة:

يدرس طالب العلم بداية أمره «المقدِّمة الآجرُّميَّة» لابن آجُرُّوم [ت ٧٢٣هـ]؛ لكونها مختصرةً وحاويةً لأصول مباحث هذا العلم، وقد يقرأ البعضُ أثناءَ دراستها شرحَها الموسوم بـ«التُّحفة السنيَّة» لمحيي الدين [ت ١٣٩٢هـ]، ثم ينتقل لأول كتابٍ ليلتقي بشخصيَّة ابن هشام ويتعرَّف على ملامحها العلميَّة والنَّحويَّة، فيدرس كتاب «شرح قطر النَّدى وبلِّ الصَّدى»، وإذا فرغ منه فراغ المحصِّل لمطالبه ومباحثه، ينتقل لأحد شروح المنظومة النحوية الموسومة بـ«الخلاصة» الألفية لابن مالك الأندلسيّ [ت ٦٧٢هـ]، والمعروفة منها – فيما بلغ علمي – للتَّدريس في حوزاتنا ثلاثة[١]:

١. شرح ابن عقيل الهمْداني [ت ٧٦٩هـ].
٢. البهجة المرضيَّة، لجلال الدين السيوطي [ت ٩١١هـ].
٣. شرح بدر الدين ابن النَّاظم [ت ٦٨٦هـ].

ثم تصلُ النَّوبة للكتاب الأخير في المنهج الحوزويّ، وهو لابن هشام نفسه، وهو كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، والكتاب يحتوي على

---

١ رتَّبتُها بحسب الأبين والأسلس والأكثر دخالةً في مباحث علم النحو.

ثمانية أبواب بعدد أبواب الجنَّة، أولها أعظمها حجمًا، وقد قيل سـابقًا بأنَّ الكتاب المذكور كان محلًّا للدرس من أَلِفه ليائه، أي من الباب الأول حتى الثامن، لكن ذلك قد استحال لغيره، فطلبةُ العلم يدرسون المغني في بابَيه الأول والرَّابع فحسب، بل وجدتُ أنَّ جملةً من حلقات العلم تقتصر على الباب الرَّابع. وكيفما كان، فإنَّنا أحببنا الإشارة إلى أهميَّة مصنَّفات ابن هشام.

غير أنَّه ينبغي الحديث عن بعض مصنَّفاته الأخرى غير شرح القطر والمغني، فإنَّ الذي يقرأ في مصنَّفاته يجدُ صاحبَها جعلها أشبه شيءٍ بالمنهج المتكامل في علم النَّحو، فالقطرُ مقدِّمةٌ نحويَّةٌ، وشرحها تبيانٌ لها، أمَّا «شرح شذور الذَّهب» فهو كالمرحلة التطبيقيَّة للقواعد المأخوذة من القطر، نعم، إنَّ القارئ للكتابَين قراءةً إجماليَّةً لن يجد فرقًا جوهريًّا، ولكنَّ إنعام النَّظر فيه كفيلٌ بتبيان صورته التَّطبيقيَّة، خصوصًا بملاحظة مقدّمته حيث يقول فيها: «وقصدي بذلك تدريب الطَّالب، وتعريفه السُّلوك إلى أمثال هذه

المطالب»[1]، ولذا نجد بعضًا من طلبة العلم يقرنون دراسة القطر بالشُّذور[2]، دراسةً ذاتيَّة أو عند أحد المشايخ، لكن المهم في ذلك أنه يُقرأ قراءةَ عنايةٍ وبناء، لا مطالعةً عابرةً دون رواء.

ثم إنَّ طلَّاب العلم عندما يَلجون الألفية، فإنَّ ابن هشامٍ يكونُ قرينَ محصِّلهم وجادِّهم، فقد شرح "الخُلاصة مرَّتَين: إحداها في كتابه «أوضح المسالك إلى ألفيَّة ابن مالك»[3]، والثَّانية في كتابٍ سمَّاه «دَفعُ الخَصاصَة عن

---

١ شرح شذور الذهب: ٣٣.

٢ تعارف أهل العلم بإطلاق لفظ المتن وإرادة الشرح، كالمثالين هنا؛ فهم يريدون شرح القطر وشرح الشذور، وكذا عندما يطلقون لفظ اللمعة ويريدون شرحها الروضة، والباب الحادي عشر ويريدون النافع يوم الحشر، والتجريد ويريدون كشف المراد، وهلم جرّا.

٣ سمعتُ من أستاذي الدكتور السيد عيسى الوداعي ﷺ في مجلس درسه بأنَّ كتاب «أوضح المسالك» هو نثرٌ للألفيَّة، **وأقول:** بأنَّ العادة جرت على نظم المتون المنثورة، وهذا الكتاب بحسب إفادات سيدنا الوداعي نثرٌ للمنظومة، فهو أمرٌ غير مألوف، وقد يكون هذا أحد الدواعي لاشتهاره بعنوان الشرح للألفية، لا سيما وأنَّ من ينثر نظمًا فإنَّه سيضطرُّ - غالبًا - لفكِّ رموزها وتبيان ضمائرها، فمن هنا ستقرب هيئتها من هيئة الشَّرح، فلعلَّ هذا ما يسوِّغ وصفها بالشرح. هذا كلُّه إذا قلنا بمقالة أستاذنا الوداعي، وإلَّا فالقول الفَصْل ينبغي أن نخرج به بعد ملاحظة ثلاثة أمورٍ أساسيَّة، أولاها: مقدّمة ابن هشام لكتابه الأوضح، وثانيها: قراءة الكتاب قراءة دقيقةً متأنِّية، وثالثها: متابعة كلمات ابن هشامٍ نفسه في كتبه الأخرى التي قد يذكر فيها مصنّفاته واصفًا إيَّاها. ومهما قيل فالأمر هيِّنٌ ولا يحتمل مزيدًا على ما ذكرنا.

قُرَّاء الخُلاصَــةَ» ويقال: إنه أربعة مجلَّدات، ويقول السّــيوطي بعد ذكر الكتابَين: «وله عِدَّة حواشٍ على الألفية والتَّسهيل» اهـ"[1].

فإذا ضــمُّوا إلى شــرح الألفية كتابَ «أوضــح المســالك» فإنَّهم غالبًا ما ســيعتمدون تعليقة محيي الدين عليه؛ لأنه قد أَودَعَ فيها ما لا يحتاج طالب العربيَّة إلى ما وراءه، كما ادَّعى نفسُه ذلك[2].

ثم إنَّ «الألفية» وما قبلها ترتبطُ مباحثها بالمسائل المعروفة الجارية على ترتيب الألفيَّة لعلم النَّحو، غير أنَّ ثَمَّ مباحث مهمَّة لم تنل نصــيبًا من البحث والتحقيق في تلك الكتب، من هنا تبرز أهميَّة كتاب «المغني» لابن هشــام، فإنَّه صــنَّفه تصــنيفًا بديعًا لم يسبقه إليه أحد، وضــمَّ فيه مباحث شــريفة تُغنِي مُتقِنَهـا عن أن يجمع في حوزتـه كتـب إعراب القرآن الكريم، فـإنَّـه «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، أي كتب إعراب القرآن الكريم.

وقد سبق منا أن ذكرنا بأنَّ ابن هشامٍ قسَّم كتابه إلى ثمانية أبواب، إلَّا أنَّها في حقيقتهـا ترجع لقســمَين كبيرَين، أولهمـا: للأدوات وحروفِ المعـاني،

---

١ من كلامٍ لمحيي الدين في مقدّمته على شرح ابن عقيل، ص٨.

٢ لاحظ كلامه في المصــدر السَّــابق، في الحاشــية برقم (١)، وانظر كذلك مقدمة تعليقته على أوضــح المسالك الموسومة بـ«عُدَّة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك».

والثَّاني: للجملة وأحكامها وشـبـهِ الجملة، وأتبعَ ذلك بأحكامٍ وقواعدَ وكُلِّيَّاتٍ يحتاجُها المعربون والمفسِّرون[1].

بَيْدَ أنَّ «مغني اللبيب» الذي هذا شـأنُه متولِّدٌ من كتاب «الإعراب عن قواعد الإعراب»، فقد ذكر المصـنِّف في ديباجة «المغني» أنَّه لمَّا رأى إقبال الطُّلَّاب على كتاب «الإعراب»، ووقف على إعجابهم به، رأى بنظره الصَّائب، وفكره الثَّاقب أن يعيدَ تأليفه مرَّة أخرى، فطفقَ يكتبه بتوسُّعٍ كبيرٍ؛ فكان هذا الكتاب «مغني اللبيب».

وإذا كان ابنُ هشـامٍ قد اعتنى بكتاب «الإعراب عن قواعد الإعراب» ببسطِ مباحثه في «مغني اللبيب»، فإنَّه عاد إليه نزلةً أخرى، واختصره في كتَّابٍ سـمَّاه «الموارد إلى عين القواعد»، ويُسـمَّى أيضًـا «النّكت المختصـرة من قواعد الإعراب» و«القواعد الصـغرى»[2]، فابن هشـامٍ حفيٌّ بهذا الكتاب كما ترى، فتارةً يبسـطه، وتارة يختصـره، وما ذلك إلا دليل أهميته عنده، وعلوّ شأنه لديه[3].

---

١ مفاتح الإعراب، للعكسر، ص٨.

٢ نشرها حسن إسماعيل مروة في كتابه «من رسائل ابن هشام النَّحويَّة» باسم «القواعد الصغرى».

٣ انظر: مفاتح الإعراب، ص٨-٩.

والذي يجعلنا نشيد بكتاب «الإعراب» كونُه مخصَّصًا لمسائل لم تفصِّل فيها الكتبُ غير «المغني»، والمغني لكونه واسعًا مفصَّلًا كان من الحسن أن يُقدَّم لمباحثه بمقدِّمة مختصرة، وهي كتاب «الإعراب»، فترتيب الكتاب:

- الباب الأول: في الجملة وأحكامها.
- الباب الثاني: في الجارّ والمجرور.
- الباب الثالث: في تفسير كلماتٍ يحتاج إليها المعرب.
- والباب الرابع: في الإشارة إلى عباراتٍ مُحَرَّرة مستوفاة موجزة.

أما الباب الأول فيقابله الثاني في المغني، وأمَّا الباب الثاني فيقابله الثالث منه، وأمَّا الباب الثالث فهي شذراتٌ تقابل الباب الأول في المغني[1]، وهما

[1] تختلف جهة بحث الأدوات في «المغني» منها في «الإعراب»؛ ففي الأول حاول ابن هشام استقصاء الأدوات في علم النحو، أو ما يُسمَّى ببحث حروف المعاني – وإن كانت الأدوات المبحوثة أعمّ من الحروف الاصطلاحيَّة –، وهذا نظير ما صنعه جملة ممن سبقه كالمرادي في «الجنى الداني»، والمالقي في «رصف المباني»، وغيرهما في غيرهما. وأمَّا بحث الأدوات في كتاب «الإعراب» فقد كان باعتبار شدّة الحاجة إليها، ولعلَّ خفاء هذه الجهة جعل بعض الشُّرَّاح يذيّل عنوان الباب ببعض التعليقات الغِرَّة والخارجة عن السياق في بعض جهاتها. ومن هنا يتبيَّن وجه التعبير بالشَّذرات، والأمر سهلٌ.

أعظم الأبواب حجمًا في الكتابَين، وأمَّا الباب الثالث فيقابله في المغني الباب السَّابع.

فكما أنَّه حَسُنَ الشُّروع في «الآجرُّوميَّة» قبل «شرح القطر»، وحَسُن الثاني قبل شرح الألفيَّة؛ لكونهما مُمهِّدَين مختصَرَين بالنسبة لما فوقهما، فكذا الكلامُ في كتاب «الإعراب» بالنسبة لصنوه الأكبر «مغني اللبيب».

فإنَّك لا تجد مسائل «المغني» مبحوثةً في الألفية وما قبلها باستقلالٍ، نعم ربما ستجدُها منثورةً مُطبَّقة، ولكنك ستحتاج إلى شرحها لوحدها وتأصيلها، كما لو مررت بإحدى الأدوات وذُكِر معناها، أو تُعُرِّضَ لإعراب جملةٍ من الجمل، فلا يمكن تنقيح المسألة إلَّا بهضم مبادئها، وهذه المبادئ موجودةٌ بتفصيلٍ موعَبٍ في «المغني»، وهو في آخر المطاف الدراسي، ولعلَّ الحظّ لا يسعف لدراسته أو بعضه، فكتاب «الإعراب» يأخذ شيئًا من دوره، ويبصِّرك لُباب تلك المباحث، ويعطيك عُدَّة «المغني» عند النزول في ميدانه.

نوقف الحديث هنا، وربما تكون له تتمة في الفصول اللاحقة مما يزيد الصورة بيانًا والمنهج وضوحًا.

الفصل الثاني: المنهج التَّدريسي لعلم النَّحو

العلوم التي يدرسها طلبة العلم الدّيني يقسّمونها لقسمين رئيسَين: العلوم الذاتية، والعلوم الآليَّة. ويعنون بذلك ما كان تحصيلها له قيمةٌ لذاته، وما كان تحصيلها وسيلةً لفهم غيره فهمًا صحيحًا منضبطًا.

وعامَّة علوم اللغة العربية هي من القسم الثاني، ولا يَغِب عن ذهن قارئي الكريم أننا نتحدَّث عن الدروس في الحوزة العلميَّة الشَّريفة، فربما تجد من يدرس اللغة لذاتها، ولكنك ستجده في أروقة الجامعات وأنديتها، لا في حلقات الحوزة العلميَّة وروضاتها.

فاللُّغة العربية – مهما علا شأنها واشتدَّت الحاجة إليها – تبقى وسيلةً لفهم النَّص الديني؛ من القرآن الكريم، ومن الأحاديث المعصوميَّة المرويَّة عن سادتنا محمَّدٍ وآله عليهم السلام، وقد روى الصدوق بسنده إلى الأسلمي، عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ؛ فَإِنَّهَا كَلَامُ اللهِ الذي يُكَلِّمُ بِهِ خَلْقَهُ**»[1]، والحيثية التعليلية واضحةٌ باديةٌ في الخبر، فإنَّما متن اللغة وصرفها ونحوها وبلاغتها وفقهها يُراد به فهم كلام الله سبحانه القرآني والمُبلَّغ على

---

١ الخصال: ٢٥٨.

لســان النبيِّ والأئمة عليهم السلام ، والإخلال بهذه الوســيلة يؤدّي بصــورة حتميَّة للإخلال بأصــل الامتثال، ولذا كان من الضَّــرورات والمقدِّمات الرئيســة للاجتهاد والاســتنباط الفقهي الشَّــرعي. نعم، عامَّة المكلّفين لا يشــتدّ في حقهم لزوم تحصــيل اللغة العربية لفهم النَّص؛ لكونهم أهل تقليدٍ من جهة القيام بوظيفتهم التكليفية، ولكن يبقى لتحصيل علوم اللغة فضلها ومكانتها، فإنَّ مساحةً واسعةً هي من حظِّ جميع المسلمين المخاطَبين من الله تعالى، وليســت منحصــرةً في مجال الاســتنباط الذي هو من وظائف الفقيه العارف بدقائق أسرار التعبير القرآني ومعاريض كلام الأئمة عليهم السلام .

وكيفما كان، فإنَّ درس النَّحو العربي من الدروس التي تأخذ حيِّزًا مُعتَدًّا به في المنهج الحوزوي، ويوليه الأســاتذة عنايةً فائقة، لا ســيما في ســنيِّ التحصيل الأولى، والمعروفة في اصطلاحهم بالمقدِّمات؛ لما لها من دخالةٍ وكيدة في فهم النَّصِّ الشَّــرعي، وتصــحيح أغلاط الجهلة بسَــنَن العرب في كلامهم.

وإذا كنا قد أشرنا للغاية التي لأجلها يعكُف طُلَّاب العلم لدراسة النَّحو العربي ينبغي لنا أن نعرِّج على الكيفيَّة الصحيحة التي تتلاءم مع هذه الغاية المنشودة، فنستعين بالله تعالى ونقول:

إنَّ جملةً عظيمة من علمائنا القدماء كانوا يتقنون علوم الآلة منذ صغرهم، اشتغالًا وفهمًا وحفظًا وتطبيقًا، ولا يكاد يبلغ عمرهم العشرين إلَّا وقد ختموها وحقَّقوها، بل صنَّفوا فيها كتبًا وشروحًا ورسائل، وهذا غير خفيٍّ على المتتبع لأحوالهم.

أمَا وقد حال الأمر في زماننا إلى غير ما كانوا عليه، لا يكاد الطفل يبلغ الفطام من ثدي أمه ويتأتأ ببعض الحروف إلَّا ويرى نفسه في أحضان الموسومة بـ«المدرسة»، فقد فُرِضَت الدراسات الأكاديمية على جميع الناس، وأصبح الانخراط فيها حتمًا واجبًا، أكثر وجوبًا وأعظم خطرًا عند أبناء هذه الأمَّة من الصلاة والصيام والزكاة والحج والفرائض عامَّة، ولا تعجب! فإنَّه الزمان الذي أعيشه وتعيشه، فعليك بالنَّظر، ثم النَّظر، ثم التفكُّر والنَّظر، وستجد ما أحكيه لك، أو بعضه.

ولا تذهبنَّ بك المذاهب فتحملَ كلامي على نبذ العلم وبغض المدارس، فإنَّها حيلة العاجز وتهمة من لا قوَّة له على وعي واقع الأمر، وإنما كلامي – كل كلامي – في الواقع المرير الذي تعيشه الأمة الإنسانيَّة في بناء أفرادها بحسب قوالب ما خُلِقَت البشريَّة لها يومًا قط. وهل لهذا المنهج العالمي بعض الفوائد من هنا وهناك؟ لا أظنني مختلفًا معك في ذلك، ولكنْ ما لهذا رميتُ، وإنما هي العصبيَّةُ التي أخذت الجاهليَّ، نالَتْكَ وداخَلَتْك، هدانا الله وإياك سواء السبيل.

وإنني إذ أُضرِبُ صفحًا عن هذه الشقشقة الخطيرة، أعود لأصل الحديث، فإنَّ طالب العلم في زماننا – غالبًا – يدرس العلوم الدينية – في أفضل حالاته – بعد انتهائه من المدرسة الثانوية، فيتعلَّمُ أنَّ الفاعل مرفوعٌ والمفعول منصوبٌ وهو يكاد يطبّق العشرين من عمره! ثم يحاول مجاهدًا إتقان هذا العلم وإخوانه في عِدَّة سنوات، كلٌّ بقدر ما آتاه الله من العقل والحظّ، ثم يكاد يطبّق الثلاثين من عمره وهو لمَّا يلجْ في العلم الحقيقي الذي من أجله أخذ يصول ويجول في علوم الوسيلة، فيُعيِيه التعب – عادةً – عن بلوغ ما صَبَتْ له نفسُه الفتيَّة بعد شَيبِها وهرمها، إلَّا أن يتداركه لطف الله سبحانه فتبقى على فتوّتها، وما أقلّ ذلك فيما رأينا!

الذي نريد أن نقول، ونخصُّ بالخطاب المدرّس المحترم لهذه المادّة ونظائرها، أنَّ هذه العلوم من شأنها أن يفرغ منها المحصِّل في سنيِّه الأولى، ليتفرَّغ في قوته ونشاطه العلمي للعلوم الأصليّة، ولا نعني بفراغه هو حرقه للمراحل كما يعبِّر البعض؛ فإنَّها آفة حقيقية ونُمسِكُ مدادَنا عن الخوض في بيان مساوئها، وإنما نعني بالفراغ تحصيلًا وإتقانًا بالجَودة المتلائمة مع شرف ما يرمي له من فهم النَّص الديني، ولَعمري إنَّه لمطلبٌ نَفِيسٌ تزلّ دونه الأقدام وتخور القوى، ولكنَّه الحقّ الذي لا يداخلنا فيك شك.

إنَّ التعليم شرفٌ يناله البعضُ من العلماء، لا كلُّهم؛ لأنَّه يتطلَّب قدراتٍ مركّزة في جوانب متعدّدة، منها: هضم المادَّة العلميَّة الأصل ومعرفة الذَّبّ عن مخرجاتها وتوفيقها مع ما سواها من العلوم، وحسن البيان والسليقة، وقوة التحمُّل والصَّبر على ما يعتور العملية التعليمية، ويحتاج لحكمةٍ في إدارة الطلاب بإجمالهم وتفصيلهم. هذا، وتحتاج العملية التعليمية إلى ضبطٍ منهجيٍّ، ولا نُخفِي سرًّا إذا قلنا بأنَّ الفصل هذا معقودٌ لهذه النُّقطة، ولبيانها تفصيلًا نقول:

إنَّ كُلَّ كتابٍ يُدرَس في السُــلَّم الحوزوي له غايته المرصــودة، عَلِمَ بها دارِسُــها أم غابت عنه، غير أني أحســب بأنَّ الغايةَ يجب أن تكون معلومةً للمدرِّس؛ لأنه مُقدِمٌ على تحقيق غايةٍ معيَّنة، وبالطبع ليســت هي (تدريس الكتاب)، لأنه عنوان عامٌّ لا يمكن محاكمته، بل اللبنة الأولى هي شــرح ألفاظه، وأمَّا الغاية الحقيقية هي بناء الطالب بمقدار ما يحتمله الكتاب، دون إقحامه في غياهب ما يليه من الكتب، ولا بخسه حقّه بعدم إعطائه ما تقتضيه مرحلته الدراسية والعمرية.

فلنضــرب مثلًا: يراد بمتن «الآجرُّوميَّة» التَّمهيد لعلم النحو ببيان معالمه وأســـه وأركانه، وتمرين ذهنية الطالب على فهم الكلام العربي مُعرَبًا، ومحاولة تدريبه على ارتجال الكلام العربي بغير لحنٍ ظاهرٍ جليّ، هذا ما يُرَاد له.

ولكننا نجد بعض الحالات المَرَضيّة من إلجاء هذا الكتاب بطُلَّابه بعض العقبات الكؤود، كتفسـير العلل النَّحويَّـة، وبيـان اختلافـات البصـريين والكوفيين، وكثرة المداقّة في نسـبة الآراء والأقوال، وغيرها من الآفات

القاتلة؛ القاتلة لغاية المرحلة، والقاتلة لهمَّة طالبها، والقاتلة للمنهج الدراسي المعقود على نواصي مدّة زمنيّة محدّدة.

إنَّ ما يرتكبه بعض الأساتذة – بسوء تقديرهم لا بسوء تقريرهم – ينخر في بنيان الطالب المجدّ، حتى يؤول أمره في يومٍ من الأيام إلى الإحباط واليأس، أعاذنا الله وإياكم من شرّه.

إنَّ تحميل المرحلة فوق ما تحتمل بُغيةَ تمتين الدرس وتعميق البحث خطأٌ واضح، ولا يمكن تسويغه، وسيجد صانعوه غِبَّ ما جنوه في عيالهم ومَن هم في ربقتهم، وهل فعلًا ستثمر صنايعهم؟ هذا غير واضح، ولئن آتت أُكُلَها عندٍ نزرٍ يسير، فإنَّها أهلكت فئامًا وأبادت آخرين، ولطالما سمعنا من هنا وهناك هذه التصرُّفات، وتأسّفنا لما آل إليه أمر الطُّلَّاب الأبرياء.

إنَّ الأستاذ الحكيم يعرف بأنَّ المرحلةَ الأولى هي مرحلةٌ أولى، وستتلوها الثانية والثالثة وهلمَّ جرًّا، فيوفِّر على نفسه وعلى تلامذته جهدًا ما هم ببالغيه، فما أَمْسَكَ عنه في هذه المرحلة سيبوحُ به في تاليتها، وسيُطنِب، ويحقّق، ويفنّد، هذه هي طبيعة التعليم، له درجات ومراحل، ووعاء التلميذ

لا يسطيعها كاملةً دفعةً واحدة، فإنَّ ذلك سيجهده ويرهقه، ولن يقبض على شيءٍ؛ لا ما خوطب به ولا ما أراده أستاذه – بسوء تقديره – له.

والآفة التي تتولَّد مما سبق، هو طول المدة الزمنية التي يقضيها الطالب في أحضان المرحلة الأولى، لأنَّ الأستاذ الكريم يريد توسعة الدرس وبسطه، ولا تجده يُبقِي للمدة الزمنية حرمةً، فما كان حقُّه أن يؤخذ في ثلاثين يومًا دراسيًّا، تجده يبلغ الأشهر الستة! وعلى ذلك فقِس، وهذا لعمري من أشدّ الآفات الدراسية ضراوةً، وبه تتولَّد في نفس الطالب أسباب الانكفاء عن الطَّلب، وتشيع النظرة المشؤومة بين الطلاب الآخرين تجاه جهده وتحصيله، وهل هو المقصّر هنا؟! هو بريءٌ براءةَ الذئب من دم ابن يعقوب.

نوجز ما مرّ، فقد تداخل الحديث بعضه ببعض:

يجب على المدرِّس المحترم أن يضبط غايته من تدريس الكتاب لهذه الفئة الخاصَّة من الطُّلَّاب، **هذا أوَّلًا**.

ثانيًا: ثم عليه أن يحدِّد مستوى البيان الذي سيتزوَّدُ به أثناء رحلته بهم في مرحلتهم الجديدة.

ثالثًا: ضبط المدة الزمنية التقديريِّة لتدريس الكتاب، وفي هذا الباب يمكنه الاستعانة بالأساتذة الأسبق منه تجربةً والأقوى منه تدريسًا، وقد ينفعه ملاحظة الدروس الصوتية المُسجَّلة حتى يتصوَّر مدَّة زمنيَّة معقولة لتدريس الكتاب، شريطةَ أن تكون هذه الصوتيات أو الأساتذة من هذا الطراز المعقول الذي نرمي إليه، لا من أولئك الذين نعوذ بالله تعالى من سوء صنيعهم وتقديرهم للأمور!

وبهذا وذاك وتلك، نستطيع أن نضمن عمليَّة تدريسية انسيابيَّة صِحِّيَّة لطالب العلم الديني؛ تمكِّنه من هضم هذا العلم وإتقانه، والانتقال للمرحلة الأصل في ربوع الحوزة العلميَّة.

بقيت ملحوظة لابد لنا من طرقها:

ما مرَّ من حديثٍ، هو في الدروس العامَّة التي لا تحمل طابعًا خاصًّا وغايةً غريبة، إنما هي دروس المقدمات النحوية التي يُراد منها تمرين ذهنية الطالب على فهم النَّصِّ العربيّ فهمًا صحيحًا يثمر نتائج منضبطة.

وهل كلامنا في خصــوص علم النحو؟ بادئ النظر: نعم، ولكن لا يخفى عليك بأنَّ نفعه أعمّ، لا ســيما في علوم الآلة، فهو فيها أوكد والحاجة إليه أشد.

الفصل الثالث: دراسة علم النَّحو

علم النحو يُعنى بأمرين رئيسَين: صون اللسان من اللحن، وضبط مواقع الإعراب من خلال العلامات. وكلٌّ واحدةٍ منهما تعين الأخرى، فالأُولى أقرب للسان من المعنى، ولذا نجد فئامًا كثيرة لا يلحنون في كلامهم مع أنهم لم يدرسوا متنًا واحدا في النحو، ولكنهم مارسوه تطبيقيًّا فنجحوا في تحقيق الغاية الأولى، ولكن يبقى عليهم دراسة قواعد الغاية الثانية، وهي الأهم والأخطر، فهي المتعلّقة بالمعنى، وهو لُبُّ الكلام.

في هذا الفصل يجدر بنا أن نحدّث طالب العلم ونحكي له ما ينبغي فعله أثناء دراسته لعلم النحو، ولكننا نستعظم هذه النية الكبيرة، فنقصر حديثنا على بضع إرشادات مهمّة نضعها نصب عينيه:

الأول: حين دراستك لعلم النحو ستجد ثغرة واضحة، ربما ليس باستطاعتك الإشارة إليها، ولكنك ستشعر بها حقيقةً، وخلاصة القول في بيان هذه الثغرة هو أنَّ علم النحو – وغيره من علوم الآلة اللغوية – علومٌ تُعنى بالقواعد والكبريات، فإنْ أخذتَها مجرَّدةً عن الموادّ الخامّ التي ينبغي

لك أن تطبقها فيها سينفكّ عندك بابا التنظير والتطبيق، فالواجب عليك بدايةً أن تلمّ بمجموعةٍ جيّدة من المواد اللغوية الخام، ثم إذا أخذت القواعد ستجد أنَّك تستوعبها بنحوٍ أفضل وببداهةٍ أسرع وبإتقانٍ أنضج. ونعني بالموادّ الخامّ هو أن تكون لديك محفوظاتٌ من الكلام العربي الفصيح العالي، وأبرزه: سور القرآن الكريم، وكذا مجموعة من خطب النَّبيِّ ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام، وكذا كمًّا معتدًّا به من عيون شعر العرب، كشيءٍ من المعلَّقات، أو مقطوعات من حماسة أبي تمام، أو غير ذلك مما يكوّن عندك ذوقًا عربيًّا سليما ويمكّنك من إجالة النظر وتدوير قواعد النحو فيها. فعليك بقراءة الكلام العربي وحفظه والسعي لفهمه، ستجد ثمار ذلك واضحةً جليّة عند دراستك لعلم النحو.

الثاني: كان أستاذنا[1] في العربيَّة متفطِّنًا لضرورة ربط دراسة قواعد النحو بالتطبيق العملي للإعراب، فاقتبس جزءًا من إعراب القرآن الكريم، وأخذ يشرحه لنا بما تستوعبه أذهاننا حينها، وكان يأمرنا بحفظ الإعراب ثم يختبرنا فيه، في بداية الأمر لم نكن نفقه جميع الأوجه الإعرابيّة التي حفظناها عن

[1] الأب المربّي الشيخ صالح الجمري حفظه الله، وقد صنَّف رسالةً وسمها بـــ«المِثال المُفصَّل في الإعراب، خمسون آيةً مُعرَبَة» في هذا المعنى.

ظهر قلب، لكن سرعان ما رأينا أنفسنا نعي ما نحفظ. إذن، النصيحة الثانية هي: مارس تطبيق الإعراب، وخذ على نفسك أن لا يمرَّ بك كلامٌ إلَّا وبإمكانك أن تُعرِبه، أو تبحثَ عن إعرابه وتسألَ فيه، سمعتَ بيتًا من الشعر، مثلًا سائرا، قول خطيبٍ أو متحدّث، وجِّه ذِهنَك إلى ضرورة إعراب مواطن الكلمات كي تتكوّن لديك الملكة الإعرابيّة، فيسهم هذا في تقوية ذِهنيَّتك النحوية التي تعينك على دراسة علم النحو.

الثالث: ادرس كتابًا رديفًا للكتاب الذي تدرسه عند الأستاذ، ادرسه بنفسك وحاول تفكيك عبائره ولملمة مطالبه بجهدك، لا بأس لو تعثّرتَ أو صعبت عندك مسألة، إنَّ هذه اللحظات والمواقف هي التي ستصنعك، ارجع للأستاذ واسأله عن المسائل التي استعصى عليك فهمها، ارجع للدروس الصوتية واتخذها معينًا لك في هذا الباب، حاول أن يكون لك جهدك الخاص المواكب لدراستك الكتاب الأصل عند الأستاذ، صدّقني، ستجد أنك بلغت مرحلةً عاليةً من الوعي والإدراك وقوة الفهم وسعة الاطلاع، ما يعينك على تحصيل المادّة التي تدرسها، وهي علم النحو في مثالنا. ولكنني أركّز على كون الكتاب رديفًا، أي صنوًا له، وليس متفوّقًا عليه

في المرحلة ومفصَّلًا تفصيلًا مرهقًا، لا ينبغي لك استعجال ذلك، سيأتي أوانه.

الرابع: اجتهد في أن تكون دراستك واهتمامك وعنايتك بالمهمّ من هذا العلم، الذي يكون له أثرٌ واضح، لا ما تناثر في كثيرٍ من الكتب النحوية من النقاشات اللفظية التي لا طائل وراءها، كبحثٍ مُطوَّلٍ في ضبط حدّ الكلمة أو نائب الفاعل، ابذل عمرك في المهم منه، فهناك مسائل جديرةٌ بالوقوف والتحقيق، وهي التي ترتبط بالمعنى، اشتغل بها اشتغالًا حقيقيًّا كي يتقوَّى بها ذوقُك الأدبي اللُّغَويّ، فإنَّ هذه علوم آلة لا علومًا للعكوف عليها أبد الآبدين، ووراءك طريقٌ طويل تخوضه في روضات كتاب الله تعالى وأحاديث النبي والأئمة واستكناه حقائقهما ودررهما وجواهرهما.

يمكن أن يُطنب في هذا الباب، ولكن الذي يحضرني مما يناسب المقام هذه الإرشادات الأربع، فعليك بتدبّر معانيها ولا تقف على ظاهرها[١].

[١] لا بأس في المقام أن تراجع مقالةً لي بعنوان: خدمةُ الكتاب النورُ المقتبَس لذوي الألباب.

ذِكر بعض تجارب العلماء في دراستهم اللُّغَوِيَّة:

إنَّه لَمن الحسن أن نذكر نُبذَةً عن تجربة أحد علمائنا الكِبار، أعني الشيخ محمدَ الحسين آل كاشف الغطاء رَحِمَهُ اللهُ [ت ١٣٧٣ هــ]، في دراسته لعلوم اللغة العربية، فإنَّه اعتنى بها عنايةً مكثَّفةً في مدَّةٍ من عمره، حتى أتقنها، ثم لمَّا فرغ من ضبط أصولها والهيمنة على أطرافها أخذ يصول في العلوم الثانية.

فحين بلغ العاشرة من عمره الشَّريف شرع بدراسة العلوم العربيَّة كالنَّحو والبلاغة، وتوسَّع في دراسة الشعر والنثر والخطابة وغيرها.

وقال مُتَرجِمًا لحياته في العقد الثاني: «وفي هذا الدور تولَّعتُ بمطالعة كتب الأدب، وحفظ الأشعار، وجمع الدواوين، وإدمان مطالعة المجاميع، ولا أنسى أنَّ أول ديوان ولعت به ديوان الأخرس؛ من فرط لينه وسلاسته، ثم انتقلت منه إلى ديوان البحتري حتى كدت أحفظ أغلب غزليّاته وصدور مدائحه، وحصلت لي في هذه الآونة ملكة النظم، فكنتُ أنظمُ المقاطيع والبيتَين وأنا في الثانية عشرة، وكنتُ أتلوها على كبير طائفتنا، ودعامة المجد

والرئاسة في عصره أبي الهادي العبَّاس بن علي بن جعفر بن[1] كاشف الغطاء، وكان رضوان الله عليه آيةً في نقد الشعر وحفظ الجيِّد منه ...»[2].

وقال أيضًا: «وكنتُ كتبتُ إلى الوالد وهو في (فَروق) عِدَّة قصائد، وأنا في أوائل البلوغ، منها القصيدة اللامية المثبتة في مجموع ديواني الموسوم بـ(الحَسَن من شعر الحسين)، وهي تنوف على المائتين وخمسين بيتًا في مقاصد شتَّى تشتمل على أنواع البديع ...»[3].

وكان الشيخ رحمه الله في مرحلةٍ من مراحل حياته أكثر شغله بالأدب ومعاشرة الأدباء، يقول في ذلك: «في هذا العقد – يعني الثاني – كان أكثر اشتغالي بمبادئ العربيَّة والشعر والأدب، ومعاشرة مشاهير الأدباء، وكبار الشعراء، كالسيِّد العلَّامة الحبُّوبي، والسيد جعفر الحلي، والشيخ جواد شبيب، والشيخ باقر حيدر، والشيخ عبد الحسين الجواهري، والشيخ آغا رضا الأصفهاني، وكانت الاجتماعات والمسامرات الأدبيَّة والحفلات

---

[1] كذا في المطبوع، والصَّواب أنَّ كاشفَ الغطاء هو جعفرٌ لا أبوه الشيخ خضر، رحمة الله عليهما، فيبدو أنَّ (بن) زيدت سهوًا.

[2] عقود حياتي: ٣٢.

[3] م ن: ٤١-٤٢.

الخصـــوصـــيَّة متَّصـــلة، وكانت هي باكورة العمر، وزهرة الحياة، وبلهنية العيش، وغراس الفضيلة، وبذرة النبوغ والذكاء ...»[1].

هذا كاشـف الغطاء رحمه الله، وكذا ما ذُكِر في أحوال أبي المجد الأصـفهانيّ الشيخ محمد رضا رحمه الله [ت ١٣٦٢هـ]، يقول كما في بعض الكتب، يحكي حضوره عند أستاذه السيد إبراهيم القزويني [ت ١٣٢٤هـ]: «قرأتُ عليه علم النحو خارجًا، وحضـرت درســه قبل أن أبلغ من التكليف الحدّ ويطرّز مني ديباج الخد، من قبل أن يرقم الشــباب على خدّي لام العذار، ويتلاقى فيه الليل والنهار. وحضرت عليه علم النحو من غير كتاب، فأفادني ما أنساني صاحب (الكتاب)؛ لو رآه سيبويه لاتَّخذ إبراهيم فيه خليلا»[2].

---

[1] م ن: ٤٢-٤٣. واستفدت هذه المقتبسات من ترجمته صدر كتابه: «تعليقة على ادب الكاتب»، من إعداد الدكتور منذر الحلي، ومراجعة الترجمة كاملةً فيها الفائدة، من الصفحة ١٥ حتى ٤٢.

[2] انظر ترجمة الأصـفهاني في صـدر كتابه «السـيف الصـنيع لرقاب منكري علم البديع»: ٣٢-٣٣، تحقيق الكتاب وترجمة المؤلف من إعداد مجيد هادي زاده.

وفي فنِّ الشعر كان ملازمًا للسيد جعفر الحلّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [ت ١٣١٥هـ]، يقول عن هذه المصاحبة: «صاحبي العالِم الفاضل، بل أستادي الذي منه تعلَّمتُ سحر بابل[١]، مُحَلِّي جِيد الفضل بأبهي حُليّ السيد جعفر الحِلِّيّ»[٢].

هذان العلمان، وغيرهما، ممَّن أتقن علوم اللغة، كانت لهم طريقةٌ مميَّزة في تحصيل هذه العلوم، تجلَّت في أخذها منذ الصغر، وتمحيض النَّفس لها مدَّة معتَدًّا بها من الزمان، بحيث لم يبلغا الفتوَّة وعمر الشَّباب إلَّا وهما متفرِّغان للتخصُّص في العلوم الأصول؛ من العقيدة والفقه وما يتفرَّع عنهما، مع عدم هجران العلوم اللُّغويَّة، التي تأبى هجرانها – إجمالًا – بطبيعتها.

ونحن هنا لا ندعو لمنهجيَّةٍ حديثة في أخذ اللغة، بقدر ما نحضُّ على العناية بتخليص دراسة اللغة مما يكدِّرها ويمنعها من بلوغها النَّصيب الأوفى، ولو في آنها؛ فإنها مفتاح العلوم وباب الخيرات، وبها يُكَلِّمُ الله خلقَه، فليتنا نفقه ذلك.

---

[١] إشارة إلى ديوان الحلّي الموسوم بـ«سحر بابل وسجع البلابل».

[٢] م ن: ٣٣.

الفصل الرابع: جدليَّة الكتب القديمة والحديثة

يشيع رأيٌ في أوساط طلبة العلم وأساتذة الحوزة بالتزام الكتب القديمة بالمنهج الاعتيادي، وعدم المساس به، ويعلِّلون ذلك بأنَّه هو الذي صنع العلماء والفقهاء وآتى ثمارًا واضحة، بل تزيد فئةٌ منهم على ذلك بتضعيفهم لأيِّ محاولةٍ في سياق تصحيح المنهج الحوزوي بتأليف بعض الكتب أو باختصار بعضٍ آخرَ منها، ويذكرون في ذلك ما يرونه أدلَّةً قويَّة تفي بدعواهم.

فيما نجد رأيًا آخر يلتمسُ جادَّة الاعتدال بنظره الموضوعي، فيُحصي حسنات الكتب القديمة، ويجتهد في رصد مواطن العيب والخلل فيها، ثم يسعى لتدوين الكتاب الذي يتلافى – بدعواه – النواقص التي شابت ما قبله من كتب.

ولا يخفى على القارئ المطَّلع بأنَّ هذا الموضوع قد كثر فيه الأخذ والرَّد، ولذا عنونَّاه بالجدليَّة، ولستُ في صدد التحقيق والانتصار لأحد

الرأيين أو الآراء إن وُجِدَت، غير أنّه قد ذُكِرَت مبرِّرات لاستبدال الكتب القديمة بأخرى حديثة، منها:

الأول: أنَّ الكتب العلميَّة القديمة التي تخرَّج عليها العلماء الكبار مثَّلتْ مرحلةً معيَّنة للعلم الذي اختصَّت به، فكتاب «المعالم» يمثّل مرحلةً علميَّة بلغها علم أصول الفقه، وأمَّا ما أبدعه العلماء فيما بعد ونقّحه المحققون فهو لا يتعرَّض له، لأنه لم ينضج العلم بالمستوى الموجود الآن، فالكتب الحديثة تساهم في معالجة هذه المشكلة الحقيقيَّة.

الثاني: أنَّ تلك الكتب القديمة وإن استعملت ككتب دراسيّة إلَّا أنَّها لم تُؤلَّف من قِبَل أصحابها لهذا الهدف، وإنما أَلَّفها أصحابُها لتعبّر عن آرائهم المختلفة، وفرقٌ كبير بين كتاب يضعه مؤلفه ليكون كتابًا دراسيًّا، وكتابٍ يؤلِّفُه ليعبّر فيه عن أعمق ما وصل إليه من أفكار وتحقيقات؛ لأنَّ المؤلِّف في الحالة الأولى يضع نصب عينيه الطالب المبتدئ الذي يسير خطوة فخطوة في طريق التعرّف على كنوز هذا العلم وأسراره، وأمَّا في الحالة الثانية فيضع

المؤلف في تصوُّره شخصًا نظيرًا له مكتملًا من الناحية العلميَّة ويحاول أن يشرح له وجهة نظره ويقنعه بها بقدر ما يتاح له من وسائل الإقناع العلمي[1].

والحديث هنا في خصوص علم النحو، وهو من علوم الوسيلة، فربما يقال بعدم ورود هذين المبرّرَين لكتب النحو القديمة، لا سيما الأول منهما، وقد نوافق المعترض، إلَّا أنَّنا نجد جملةً من الثغرات في الكتب القديمة؛ كصعوبة التراكيب اللفظية، والاستطراد في كثيرٍ من الموارد بما لا يعود بمحصّلة على الطالب ولا على البحث نفسه، وعدم الانضباط المنهجي في جملةٍ أخرى من مواضيع العلم.

وأمَّا الكتب التي أَلَّفها علماء متقنون وضابطون في العصور المتأخرة فإنها تلافت ما وقع فيه مَن سبقهم، ولا غرو فإنَّها طبيعة العلم، فالزمن ينضجها ويهذّبها، ولعلّنا نستأنس بقول بعض المعاصرين حينما وصف العلماء المتأخرين بكونهم أعلم من المتقدّمين، وسبيلُ فَهمِه فهمًا صحيحًا هو هذا

---

[1] انظر: المقدمة التي كتبها السيد محمد باقر الصدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للحلقات الأصوليَّة الثلاث، ولاحظ ما قدّم به تلميذه الشيخ محمد باقر الإيرواني حفظه الله في مقدمة دروسه التمهيديَّة في الفقه الاستدلاليّ، وغيرهما في غيرهما.

المعنى، ولا ينبغي ردّ الكلام والنّفرة منه دون موجبٍ عقلائيّ، ومن هنا خطّأنا من قال: ما ترك الأولُ للآخر، ونقول: كم ترك الأول للآخر!

ولكيلا يخرج بنا سياق الحديث عن الموضوع الأصل، فإنَّ هناك جهودًا مميَّزةً لعلماء اللغة العربية في زماننا المعاصر تفوق في نضجها ما دوّنه المتقدمون، مع فضل السابق على اللاحق، ومع عدم هجران القديم، فهو أصلٌ ومنه تكون نقطة الانطلاق للتقويم والتنقيح.

فنقولُ إيجازًا: إنَّ ما يُهِمُّ طالب علم النحو – والعربية عمومًا – هو إتقانه لهذه الآلة فهمًا وتطبيقًا، فكلُّ سبيلٍ بلّغه غايته فليَقتَفِه وليحرص على ملازمته، ولا نعني بالكل إلّا تلك الكتب المتقنة التي صنّفها علماء أقوياء محقّقون كانوا قد عاشوا مددًا طويلة مع الكتب القديمة ودرّسوها وشرحوها وقلّبوا ظواهرها وبواطنها، ثم قاموا بجهودهم في سبيل تطويرها، والملاك في تحديدها هو قول أهل الخبرة لا تشخيص صغار الطلبة وأغمارهم، وليس شهرته عند الناس، فما من آفةٍ في هذا الزمان إلّا الشهرة والانتشار، فقد انقلبت المفاهيم وطبّق المثلُ «إنَّ البُغاث بأرضنا يستنسرُ» أرجاءَ الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونشير إشارةً أخيرة:

إنَّ الكتب الحديثة وإن كُتِبَت بلغةٍ واضـحة بيّنة، إلَّا أنَّها لغةٌ علميَّة محكمةٌ دقيقة، لا زالت تحتاج حاجةً ماسَّـة لعلقةٍ بين الأسـتاذ والطالب لبلوغها بلوغًا صـحيحًا، فميزة بيانها الجليّ لا تفقدها دقّتها وعلميّتها، بل يبقى الطالب يحتاج للمدرّس الكفؤ لشـرحها وتطبيق مواردها، فدعوى الانفتاح في هذه العلوم على الكتب الحديثة لا تلازم الدعوة للصُّحُفيَّة، فتنبّه إن كنتَ لبيبا.

أتممنا بفضـل الله تعالى ما شـرعنا فيه من مقالةٍ على هامش درس كتاب الإعراب، مسـتعينين بالله تعالى متوكّلين عليه، وذلك في جلسـاتٍ متفرّقة، كان آخرها نهار يوم الإثنين في الثامن عشـر من ثاني الجمادتين لعام خمسـةٍ وأربعينَ وأربعمائةٍ وألفٍ من هجرة مولانا المصـطفى ﷺ، المصـادف لليوم الأول من السنة الشمسيَّة الميلادية الجديدة ٢٠٢٤.

وكتب حامدًا وعلى النَّبيِّ وآله مُصليًّا أبو محمد رضا أحمد نصيف

عفى الله عنه وعن آبائه وأهله وأساتذته بعفوه المنيف.